

لمحات من حضارة العرب في العلوم

الدكتور جمال الدين الزماني

ويؤدي الى غلاء الاثمان ومن جهة اخرى نرى ان احتياج الدولة الى فرض مكوس متزايدة تزيد على غلاء الاسعار اذ يجتهد المنتج أو التاجر في نقل المكوس على عاتق المستهلك .

كما تنبه العرب الى ان المدينة حاجة اقتصادية وحاجة دفاعية فهي المكان الذي يتربع فيه العيش والذي يتولد فيه التضامن الاجتماعي من اجل الحياة ولكن الترف والتضامن لايعتبران الدافع الوحيد لتأسيس المدن بل تدعو الى ذلك حاجة الدولة فالمدينة نتيجة لمقدمتين احدهما اقتصادية وهي الحاجة الى الدعة والراحة والاخرى سياسية وهي الحاجة الى الدفاع . تنبه العرب الى كل هذه الشؤون الاقتصادية وحفلت بها مؤلفاتهم بل ان مقدمة ابن خلدون وصبح الاعشى في صناعة الانشا للقلشندى واغانة الامة بكشف الغمة للمقرئزي ونحو ذلك وكان له شأن كبير في هذا المضمار الاقتصادي لا يمكن نكرانه أو نسيانه وألف العرب في السياسة منهم أبو زيد البلخي المؤرخ الجغرافي الذي كتب كتابين الكبير والصغير وكتب فتح السياسة المدنية أبو نصر الفارابي الفيلسوف المشهور ومن الكتب الهامة في هذا الباب كتاب سياسة المالك في تدبير الممالك لابن ابي ربيع وجاء في مقدمة الكتاب أن مؤلفه الفسه للمعتصم العباسي المتوفى سنة 228 هـ .

وبرع العرب في الكيمياء والصيدلة والطب وهم من الاوائل الذين اشتغلوا في علم الادوية وتحضيرها وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيدلة على اقرباذين الفه سابور بن سهل المتوفى عام 255 هـ حتى ظهر اقربازين أمين الدولة المتوفى عام 560 هـ .
وذكر الفرنجة أن العرب هم الذين اكتشفوا حامض

نبت العرب في الشعر نبوغا عظيما وادركوا فيه القدح المعلى والذروة العليا واستطاعوا ان يصلوا الى المعاني الدقيقة والخيالات الرقيقة والمعاني المبتكرة والاسلوب العذب الرصين والعبارة الطليبة الانيقة كما نبغ العرب في الفصاحة والبلاغة وضروب البيان ، وخاضوا في علم التاريخ والجغرافيا والسياسة ونشروا في ذلك التأليف الكثيرة والكتب العديدة بيد ان هذه الالوان من المعرفة اصبحت معروفة لدى الخاص والعام وامتد ذكرها في الآفاق وتغنى بانثرها البركيان ولكن هناك علوما ومعارف شتى اجادها العرب ايما اجادة ولكن عنصر الادب والشعر طغى عليها فطمس الى حين معالمها حتى يخرج من ينفذ عنها تراب السنين ويجلو عنها صدى الدهور ويستخرج منها تاريخا حافلا وماضيا زاهيا يتألق سنه ويسير الناس على هداه .

ومن ذلك ان العرب ألفوا مراجع في الاقتصاد السياسي مثل كتاب «الجواهر» واصنافها لمحمد بن شاذان الجوهري وقد ألفه في القرن الثعالت الهجري للخليفة المعتضد المتوفى عام 279 هـ وكتاب « مزاجات الجواهر » وعمل الفولاذ وكتاب الاشارة الى محاسن التجارة للشيوخ ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ويبحث في جيد الاغراض ورديثها وغشوش المدلسين كما يشمل فصولا في حقيقة المال وانواعه واستثماره والكشف عن رديته وفاسده من الاحجار الكريمة وطرق تحصيل الاموال كما يضم وصايا نافعة للتجار على اختلاف طبقاتهم كما تنبه العرب الى اتصال الحاجات بالحضارة وتدرج الحاجات والانتاج واثرت الترف في طرق المعيشة وعلاقة الترف بالاثمان والانتاج ومساوي الترف الاخلاقية فضلا عن أن كثرة الترف تدفع الاسعار الى الغلاء فالطلب على مواد الترف طلب غير مرغوب

وتعددت على مر الأزمان وداخلتها فنون شتى في التنميق والتنجيد والزخرفة وما إلى ذلك حتى عسدا الفن الإسلامي يهر العين ويخلب الفؤاد وبرع العرب كذلك في صناعة التوليد واشتهر في هذه الصناعة عدد كبير من السيدات وتسمى القائمة في ذلك منهن بالقابلة واستعير فيها معنى الاعطاء والقبول كان التقاء تعطيتها الجنين وكانها تقبله كما كانت تخفف عن الامهات آلام الوضع وتعينهن على الولادة الميسورة وكتب العرب في ضرورة تدخل الدولة في الحال الاقتصادي والتنمية الصناعية لانعاش وسائل العيش لان الدولة شديدة الارتباط بالعمران والحضارة .

وفي ذلك يقول ابن خلدون ان المصنّاع وإجادتها انما تظلبها الدولة فهي التي تتفق سوقها وتوجه الطليات انبها وما لم تطلبه الدولة وانما يطلبه غيرها من اهل الحضرة فليس على نسبتها لان الدولة هي السوق الاعظم وفيها تقاس كل شئ. والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة مما يتفق منها كان اكثر ضرورة .

كما كتب العرب في التعاون مما يعتبر انيوم مادة جديدة للدراسة في الجامعات اعتبروا ان النوع الانساني لا يتم وجوده الا بالتعاون وان المجتمع اذا فقد التعاون تهاوى بنيانه وتداعت اركانه واذا لسان الانسان لا يستطيع أن يعيش بنفسه فقط فهو احوج ما يكون الى تسخير جهوده لخدمة الآخرين ليفيد من ذلك تسخير الآخرين جهودهم لخدمته .

وبرع العرب كذلك في كتب المعاملات والآداب وتنظيم الحكم ويعتبر كتاب فتح القدير لكامل اندرين الهمام وصبح الاعشى لفلقشقندي وكتاب الاحكام السلطانية لهماوردي من أخصب الكتب في هذا الباب أما الرحلات فظهر فيها مؤلفون ناهيون ناهيون نذكر منهم القزويني الذي ظهر في القرن السابع للهجرة ويرجع نسبه الى الامام أنس بن مالك ومن اشهر مؤلفاته عجائب المخلوقات في الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ووصف ما فيها والارض وما عليها ورتب كلا من الحيوانات والنباتات على حروف المعجم وكتاب آثار البلاد واخبار العباد الذي طبع في غوننجن عام 1850 م وابن بطوطة صاحب الرحلات المشهورة وله كتاب تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاشعار وقد اهتم المستشرقون اهتماما بالغا بهذه الرحلات وترجموها الى اللغات الاجنبية وعلقوا عليها تعليقات كثيرة وبدر الدين الروكش المتوفى عام 794 هـ وصاحب كتاب القدر الوافر فيما يحتاج اليه المسافر . وهكذا كان فضل العرب سابقا شاملا وكان مجدهم

التثريك وزيت الساج (حامض الكبريتيك) والبولتاس وروح النشادر ونترات الفضة واوكسيد الزئبق ونبغ فيهم ابن البيطار الذي تبحر في دراسة النبات والنف كتاب المغني في الادوية المفردة ومنه نسخ خطية في ليدن والمتحف البريطاني واكسفورد وباريس وكتاب جامع مفردات الادوية والاغذية وطبع في مصر في عام 1291 ثم ترجم الى اللغة الالمانية وكتاب ميزان الطبيب ونبغ ابن شاذلي في العلوم الهندسية وألف ابن الهيثم كتابا في أوائل القرن الخامس للهجرة جمع فيه الاصول الهندسية والعديد من اقليدس وائلتوتس ومن أشهر كتب المسلمين في رجبير ساب رجبير واملدبه فقد عنى العرب بشرحه وتفسيره والتعليق عليه واشتهر من علماء اسك في الاسلام أبو نصر البيلخي وسهل بن يشن وحنين بن اسحاق وغيرهم ونادي المسلمون بابطال علم التنجيم حيث انه يقوم على أسس واهية ودعائيم ضعيفة ومضوا يقيسون اعروض ويرصدون الافلاك ويراقبون السيارات ويتبحرون في دراسة تاليف الاوائل والاواخر في علم الفلك .

ومن الطريف أن المسلمين فضلا عن هذه العلوم والمعارف الأنفة الذكر لم يغفلوا قيمة التدبير المنزلي وهو عندهم فرع من انحكمة العملية وتعريفه معرفه اعتدال الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجته وأولاده وخدامه وطريق علاج الامور الخارجة عن الاعتدال ومن الكتب التي تدخل في هذا النطاق كتاب الطبخ لبراهيم ابن المهدي وغيره لابن ماسويه وابراهيم بن العباس النصولي وجحظه والرازي وغيرهم ووسع العرب في الاعمال المهنية والصناعات الدنيقة واهتموا بالتجارة واعتبروها من ضروريات العمران اذ أن الله سبحانه وتعالى جعل للانسان في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضرورياته وحاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر فيما هو معروف لكل واحد وقد اعتبروا منافع البدو في الشجر يختلف عن منافع أهل الحضرة فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والاوئاد لحياتهم والهودج والرماح وانقسس والسهام سلاحهم وأما أهل الحضرة فالتسقف لبيوتهم والاعلاق لاوابهم والكراسن لجلوسهم وتعرض العرب لصناعة الخمر وانشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدفات كما برع العرب في صناعة الحياكة والخياطة واعتبروا هاتين الصناعتين من ضروريات العمران ولذلك نبغ العرب في صناعة البناء وهي أولى صنائع العمران الحضري واقدمها وقد بدأت باتخاذ البيوت والمنازل للسكن المادي لدفع أذى الحر والبرد ثم تطورت

الثان على غرار الغفران والثواب والزوابع

بمسم الدكتور احسان عباس
استاذ بالجامعة الأمريكية (بيروت)

١ - تعريف بالوهراني (١) ورسالته التي تسمى
«الشم الكبير» :

اسمه محمد بن محرز بن محمد وكنيته ابو عبد الله ،
وتسبته تدل على ان اصله من مدينة وهران ، فهو
مغربي الاصل ، هاجر الى مصر في أيام صلاح الدين
الايوبي ، حيث عرف بلقب « ركن الدين » او « جمال
الدين » ، فلما دخل مصر ووجد بها اعلام الكتاب امثال
القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وغيرهما أدرك أنه
لا يستطيع مناقستهم في الطريقة النثرية ، فعبدل عن
طريق الجهد ، وسلك طريق الهزل ، وعمل المنامات
والرسائل المشهورة به والمنسوبة اليه ، (2) وبهذه
الطريقة استطاع ان يتميز بين معاصريه حين اتجه الى
الفاكهة والسخرية اللاذعة . وقرئ في عليه جانب من
الحنو الفاضل ، وروى عليه كما يرق عتيق البايي (3) ،
وقد وطف الوهراني خطيباً للمسجد الجامع بداريا ،
قرب دمشق ، فتعرف الى هذه المدينة والى كثير من
رجالها ، وحاجم بعضهم في نثره . وظل في الشام
الى ان توفي فيها في رجب عام 575 ودفن على باب تربة
الشيخ ابي سليمان الداراني . (4)

وقد احتفظ المصري في مسالك الابصار بقطعة
كبيرة من نثر الوهراني تمكن الدارس من الحكم على
اتجاهه العام فيه . واستطيع ان يقول ان نثره يعنى

تحتل رسالة الغفران للمعري ورسالة الزوابع
والزوابع لابن شهيد الاندلسي مكانة هامة في تاريخ
النثر الفني العربي ، لما فيها من خصائص الابداع في
الطريقة ، وما تتميز به كلتاهما في طيبة الخيال
والسخرية ، وقد كانت المصادفة وحدها هي العامل
الذي أدى الى ظهور هاتين الرسالتين في تاريخين
مقاربتين في القرن الخامس الهجري ، ويظل التباين
بينهما قائما في حقيقة الدواعي والغايات وفي النسق
والاسلوب والتخييل وما الى ذلك من شؤون . وقد كنت
دائما اتساءل : هل ظلت هذه الطريقة القائمة على تصور
رحلة الى عالم غير هذا العالم مقصورة في تاريخ النثر
العربي على هاتين الرسالتين ؟ ألم تترك الرسالتان اى
اثر في ما جاء بعدها من نثر ولو على سبيل المحاكاة
والاحتذاء ؟ وقد هداني البحث اخيرا الى اكتشاف اثرين
نثرين آخرين اقيما على مثال رسالتين المعري وابن شهيد
ويتميزان الى فترتين متفاوتتين ، ولكن ما يلفت النظر ان
صاحبهما ينتميان الى المغرب العربي - بالمعنى الواسع -
فاول الاثرين هو «الشم الكبير» للوهراني ، في القرن
السادس الهجري ، وثانيهما هو رسالة «الساكن
والحبيب» وهي مسن انشا اديب اندلسي مهاجر الى
المغرب . ولما بين في هذا البحث لا تمدى التعريف
بهذين الاثرين وبصاحبهما :

(1) راجع ترجمة الوهراني في ابن خلكان 4 : 19 (ط. الشيخ محيي الدين عبد الحميد) والوافي للصلبي
4 : 386 والغير للذهبي 4 : 225 وشدوات الذهب لابن العماد 4 : 252 ومسالك الابصار 13 ، 27 مخطوطة
ايا صوفيا والم : 3426 .
(2) ابن خلكان 4 : 19 .
(3) مسالك الابصار 13 : 27 ب .
(4) ابن خلكان 4 : 19 .